

أحمد عبد الله حامد أنشودة السقوط

لن نحكي حكايةً أو رواية ،
لكنها الحقائقُ وآلام الضائعين .
فهل نحرك منكم ساكننا ؟
نحن نناشدكم ان تفتشوا دائما ،
لتبينوا حقيقة الداء ، بدلا من هذه الغفلة .
وعندئذ لن يستعصي دواء .
نحن نناشدكم قبل ان تفقد الانسانية 'انسانيتها' ،
لنتحول من آدميين الى اي شيء آخر .

المنظر : ذلك الانسان ، في القرن العشرين . واقف على حافة النهر . الريح تزمجر
احيانا ، وفريق الضفادع يؤدي لحنا رتيبيا . الوقت مساء . هو شاب من الغالبية اليائسة .
والشرطي المعجوز الطيب يلوح قادما عن بعد .

الشاب : فعلا . فعلا . انا لم اعد احتمل كل ذلك العبث البغيض . واخيرا قررت .
الشرطي : (من بعيد) من هناك ؟ هيه . الا تسمع ؟
الشاب : (مستمرا) ربما كان هناك متسع لامثالي . كثيرون امثالي . بل لا بد ان يكون
هناك المتسع المرجو .

الشرطي : (مقربا) يبدو انه لا يسمع ، ذلك الواقف على حافة النهر . لعلها قصيدة
يستلهم آخر ابياتها . هيه . انت ، هناك .
الشاب : من ؟ انا ؟

الشرطي : على اية حال ، لا يوجد معنا الآن ثالث يمكن ان اناديه . ما وقوفك هكذا
على حافة النهر في ساعة متأخرة ؟

الشاب : انما اطلب الخلاص . وهذا بالتأكيد امر لا يعينيك .
الشرطي : يا الله . الخلاص ؟ يبدو ان الامر جد خطير . ولكن ممّ تطلب الخلاص ؟
الشاب : من كل شيء ، فانا لم اعد احتمل .
الشرطي : لم تعد تحتل ماذا ؟ حسبتك في بادىء الامر شاعرا ، او على الاقل

عاشقا مهووسا في وقفك هذه .

الشاب : ابدأ . لن احتمل بحال .

الشرطي : حسن . ومن اجل ذلك تطلب الخلاص . ولكن كم عمرك ايها الشاب الذي فقد الرجاء هكذا ولم يعد يحتمل ؟

الشاب : سبعة وعشرون . وعندها ، آن لي ان اطلب الخلاص . فقد احتملت الكفاية .

الشرطي : كلا ، كلا ، يا بني الطيب . لا ينبغي ان يكون هذا سن اليأس . كما انه ليس هكذا تعالج الامور ، ايها الشاب . بالتأكيد هذه افكار حمقاء ، وان كانت ترسم على تجاعيد وجهك آثار مأساة مشحونة .

الشاب : ربما كان في الخلاص راحة لامثالي ، بدليل ان احدا لم يعد الينا فاراً من عالم الموتى ينشد الخلاص في عالمنا هذا ، عالمنا البغيض .

الشرطي : اوه ! انت تتحدث بطريقة غريبة ، كما لو كنت تحمل عبء مأساة جيل بأكمله . ولكني اعلم يقينا - من قراءاتي في الكتب السماوية - ان الانتحار عمل غير مشروع .

الشاب : وليس من حل سواه لايقاف المهزلة التي تضج بها ايامي وسط ركب الضائعين .

الشرطي : يا للدرك المشؤوم ! ولكن لا بأس ، فلم يبق سوى يومين لترك هذه المنطقة نهائيا ، مبتعدا عن هذا النهر البغيض ورائحة الجثث الكريهة التي تزكم انفي . ففي كل

امسية يأتي انسان : كانوا قديما من الشعراء ، واليوم واحد من الغالبية اليائسة التي لم يعد لها رجاء ، التي تلقي بهمومها في احضان هذا النهر ثم لا تلبث ان تختفي نهائيا من الوجود .

غريب امر هؤلاء الناس ، بل ومفزع ايضا . نعم . نعم . لشد ما هو مفزع في كل ليلة .

الشاب : هكذا عندما تعجز كل الحلول ويصبح الخلاص من هذه الحياة حلا مغريا ووحيدا .

الشرطي : ولكني لم اعد افهم . بحق الشيطان ، اي انشودة شريرة تحوم حولكم ايها الصغار الناشئون في العقد الثالث من العمر ثم لا تستطيعون منها فكاكا الا بهذا الموت البغيض ؟ لشد ما ترتعد فرائصي .

الشاب : يقفز المرء في الماء بعد ان كان يقف على حافته ، يرهقه يأس مرير . وهكذا تنتهي الحياة ويذهب كل شيء بلا رجعة .

الشرطي : اللهم الا بضع فقاقيع ودوائر فوق سطح الماء . ثم لا شيء . النهر ماض في انسيابه ، وزحام النهار يبهز الانفاس . كما ان ساعة واحدة لن تتوقف عن المسير ليصبح

الانسان منسيا مهملًا كأن لم يكن ذات مرة .

الشاب : لكن رائحة الجثث الكريهة ستحكي يقينا مأساة الوف الهاربين من بني البشر الى الاعماق حيث العدم .

الشرطي : يا الهنا العظيم ! اي روح خبيثة تحط كالكابوس لتهدد امان البشرية ؟ رفقا

بالضعفاء ، فهم يقتلون انفسهم وما من رقيب . ايها الشاب ، يجب ان امنعك عن هذه
الفعلة . فانت بانتحارك انما ترتكب جرما ، وقوانيننا بالطبع تعاقب المجرمين .

الشاب : اية قوانين ؟

الشرطي : تماما كما لو كنت تقتل انسانا آخر . ولكن اسمع ، بل اصغ اليّ جيدا ، ايها
الناشيء الابله . ماذا يمنعك من ان تحاول مرة اخرى ؟ لا بل مرات ، فانت كما تقول لم تتعدّد
السابعة والعشرين ، وللطريق دائما بقية .

الشاب : هراء . لا يمكن ان استمع اليه . والآن دعني . فانا ماضٍ الى حيث لا يستطيع
احد منهم اللحاق بي ، هناك في القاع .

الشرطي : هيه ! يبدو انك هارب من بعضهم ؟

الشاب : كلهم .

الشرطي : من ؟

الشاب : الجبناء .

الشرطي : اي جناء تقصد ؟

الشاب : كلهم ، والابتساماة الزائفة ترتجف على شفاههم في تحدٍّ مجوج ، حيث يقتل
المرء ببساطة انسانا آخر ، مثله ، غير دارٍ بذلك وسط مشاغله اليومية .

الشرطي : كان الناس قديما يحبون بعضهم بعضا وربما لم يعرفوا القتل ابدا .

الشاب : هل حقا ؟ ترى في اي عصر ؟ ليس غريبا ان يمضي الجناة والمزيفون على
شاطئ هذا النهر باحثين عن اللهو غير عابئين حتى يبحث ضحاياهم ، فهم واثقون انهم
ذهبوا ولن يعودوا . آه ، غير عابئين .

الشرطي : لكنني ارى ان الحياة تسير ، ومن الحق ان نهرب من ركبها طائعين مولولين ،
خاصة اذا ما كان الانسان في العقد الثالث .

الشاب : انسان العقد الثالث في القرن العشرين كهل تثقله افكار رهيبة .

الشرطي : كلا ، ابدا . اذكر وانا في مثل سنك حين كنت اداعب اطفالي . ولكن
حقا ، انت كيف تترك اطفالك ايها المتمرّد ؟

الشاب : اطفالي ؟ لا ، ليس في الوجود شيء بهذا الاسم . كما انني شخصا لا يمكن ان
اسمح للمساءة ان تتكرر ، ان يجرى الى هذا العالم انسان آخر وانا السبب . لا ، لست حتى
سببا . كما يسودني اعتقاد اكد اننا نسير الى الوراء .

الشرطي : ماذا ؟ كلا . كان لا ينبغي ان تجيبني على هذا النحو ، انت ايها الشيء الكافر .

الشاب : ما من داعٍ لان تغضب مني ، فالحق اقول ؛ ولكنني ايضا ماضٍ هناك ، في
القاع ، حيث العدم ولا وجود للجناة المزيفين او غد معتم يتربص بالصغار .

الشرطي : ايها الانسان المنبوذ ، كما لو كنت تنتمي الى شرذمة الضالين من نسل آدم ، من يسلكون الطرق الملتوية في هذه الحياة ثم يتفلسفون .

الشاب : حذار من الفلسفة . حاول المعلم يوما ان يطلعني على الكتب ، ربما كل الكتب ؛ فقرأت وقرأت ، اكثر مما تحتمل طاقة الانسان . ثم حاولت مناقشة رجل الدين ؛ ذهبت اليه في صومعته لاهئا ، ابحت عن الحقيقة . تكهرب الموقف والجدال طويل ، ليعلم الرجل اخيرا استحالة المناقشة مع امثالي . ثم عدت وقد ازددت ضياعا وحيرة . غير ان خالي ، وهو شيخ مرموق ، صلى من اجلي كثيرا . وبعد فهم يفتشون عن اللامعقول . الويل للصغار !
الشرطي : بل الويل كل الويل لكم انتم ، ايها الضعفاء الذين تهربون الى القاع تولولون . الويل للصغار ! وهكذا تضيع الحقيقة .

الشاب : لا . لم يعد هناك مجال في هذا العالم لشيء اسمه الحقيقة ، رغم ترديدها بمعنى او بآخر في معظم كتاباتنا ، بل وفي الكتب المقدسة . تلك هي الحقيقة .

الشرطي : ومن اجل ذلك يتحول الشاب الى كهل يسعى الى حقه بقدميه . يا للمرارة في حلقي ! ولكن ، حسن . دعني وشأني ، فليس لي ان ادافع عن قضيتكم . كما انه ليس لك ان تستدرجني هكذا في لباقة . والا يا ولدي فلن تتفتح اكمام الزهور ابدا ، ولن تهطل امطار حتى للرعاة ، وتعم الوجوه بلادة رهيبة . فالعالم تسوده رائحة واحدة لا تتغير . ذلك الباطل العفن يحفر التعاسة على محيا الصغار الابرياء .

الشاب : شيء اسمه المال باعوا من اجله كل شيء ، لان شبح الفقر ثقیل ولونه الرمادي الداكن كبشرة خنزير عجوز يحيل طموح المرء الى استسلام مقيت . ذلك الفقر ، لشد ما ابغضه ، فهو يهلهل في شراسة آدمية الانسان .

الشرطي : كان الناس قديما يتحلون بالقناعة ، فهي كنز .

الشاب : والمتطلعون ابدا الى مستقبل افضل ؟

الشرطي : كثيرون من عباقرة هذا العالم عاشوا جزءا طويلا من حياتهم في فقر مدقع .
الشاب : هلا عرفت بالله كيف عاشوا ؟ او حتى تصورت ما يمكن ان يعانیه آدمي بسيط اعزل ازاء وحش خبيث كهذا يعترض طريقه في قسوة كالبحيم ليحول دونه وغاياته واحلامه ؟ اي عناية سماوية نفتقر اليها في هذا العالم ، والا فالمصير حتما الى خراب . نعم ، خراب . ولا تجديد حيث لا مكان للفنانين ولا ثمار ترجى ، فالتربة ترويه دماء الضائعين .
الشرطي : في محبة المال احيانا تكمن كل الشرور . هذا المال ...

الشاب : كنا صديقين لطيفين ، جمعنا طفولة فقيرة متطلعة . لكن الموت اختطف اباه فجأة ليبدأ الفتى منذ فجر صباه حياة قلقة يهددها التشريد . غير ان اكبر اخوته كان اقصى عليهم من الموت الذي اختطف امانهم . فعرفنا الدموع ونحن في بداية العقد الثاني من

العمر . كان علينا ان نتكاتف في صلابة لتمر العاصفة دون ان يفقد صديقي الرجاء في مستقبل حياته . في لحظة ضياع يعرف الطريق الى النهر ، ليتحول في ثوانٍ الى جثة . ثم ، لا شيء . وجاءت الفلسفة ، وحوّلنا دموعنا بها الى بساتٍ ساخرة ، وعبأنا الآلام بشحنات من الاصرار رغم كل شيء ، بمزيد من الاصرار . فقد قال احدهم يوما ان لا مستحيل تحت الشمس ، وكنا في حكم المفتشين عن المستحيل دون ان نملك حتى شمعة نهتدي على بصيصها الى مسالك الطريق . وسرنا على الدرب سويا فقيرين ، ولكننا على الطريق ؛ وكنت انا عصاه التي يتكئ عليها كلما فاجأه عطب يهدد كيانه . كنا نحلم ونحن صغار ، وحين كبرنا بدأنا نخطط ، اذ لا بد من مستقبل افضل . وسرعان ما تحققت احلام اليتيم ، فمن المرجح انه لم يكن يطمع في اكثر من الامان . وعندها بدأ يعرف طعم الراحة . الطريق طويل ومعتم ، مخوف بالكلاب الضالة ، الا مني : فقد كنت انا عصاه . ولكن لا بأس ، فقد وصل هو الى بر الامان . وفجأة القاني المجنون من يده . هكذا ، فجأة ، وبلا اسباب . فقد تعودنا الا نهر للآخرين بعضا من تصرفاتنا الخاصة . وفجأة وجدتي وحيدا . والطريق طويل ومعتم ، مخوف بالكلاب الضالة . ووجدتي وحيدا . تنكر لي اخي الانسان ، وعرف الطريق الى المال ، اصل الشرور . تحول الصغير الحبيث فجأة الى داهية يعرف كيف يحرص على مصالحه فقط . مصالحه هو ربما كانت حياته . مرض المسكين بحب الذات رغما عنه وتخلي عن كل شيء ، حتى صداقتنا والذكريات . الطريق ما زال امامي طويلا طويلا ومعتم ، تحفه الكلاب الضالة . وهاأنذا في مسيس الحاجة الى عصا اتكئ عليها لاواصل المسير . ولكن اللثم مزقني ، ربما عن غير قصد ، فقد مرض بحب الذات واصبح محتملا عليّ ان اكمل الطريق وحدي ، الا من كلاب ضالة متحفزة دائما وعصابة سوداء تكاد تزهق انفاسي . وانا يا سيدي انسان ضعيف ، والا فانا جماد محروم حتى من نعمة الاحساس . لا . لا . بحالٍ لن اطيق .

الشرطي : وكيف الرجوع اذاً عن الطريق ؟ بحق الشيطان ، يبدو انهم ارغموك فعلا على القرار البغيض ، انت ايها الانسان المسكين .

الشاب : هناك في القاع موت وعدم ، ولا سخافات .

الشرطي : لكننا يا ولدي نختصر حياتنا على هذه الصورة .

الشاب : لا حياة مع اليأس ، والطريق الى النهر مغرٍ كأننا تحفه الفوانيس من كل جانب . النهاية دائما واحدة : موت مقيم . لكن الطرق عديدة . ويبدو انه من الذكاء احيانا ، بل الافضل فعلا ، ان يختصر الانسان الطريق .

الشرطي : البعض يختصرونه بالادمان .

الشاب : الادمان ؟ اوه ، نعم ، ذلك المخدر الساحر . موت بطيء ولذيذ ، يعرف

كيف يغسل هموم المرء مؤقتا . نعم ، نعم ، كنت اهرب اليه من المجانين والكلاب الضالة حيث لا امان ، وانسان يتنكر فجأة لاخيه الانسان ، ولا اسباب . وفي الليل ، في كل ليل ، يأتي المخدر ، وهروب من الواقع الى الم في النفس دفين . وكل المجانين يغفلون عن عمد غريب ان الطريق ستؤدي بهم حتما الى نهاية واحدة : موت مقيم ... ولا تجديد حيث لا مكان للفنانين حتى لو كانوا من الحضيض او اولاد الحرام . ففي براءة الطفولة متسع للجميع . لكن احساسات المرء حين يعرف كيف يترجمها لتخدم الضالين من العالمين لها ثمن وحيد : خلود لا يريم ... مساء الفل ، وذوي عينين جاحظتين وسط وجه شاحب يعجز عن ترجمة خطوط الكثيرين ، يدور على الجالسين . السم بطيء ، ولكن مفعول السحر اكيد . وفي عالم السموم لا خفير ولا امير ، فالكل يغلفه ضياع مهين . وانا يا سيدي لم اعد اطبق . ابدا لم اعد اطبق ... والفنانون —

الشرطي : لكن الارض تبدو مليئة بالفنانين .

الشاب : بل المنكوبين ، من فضلك . لا مجال للحقيقة . لكن صروح الدعارة تعلو وترتفع ، فاي ثمرة ترجى والتربة ترويهادماء الضائعين ؟

الشرطي : منذ القدم والفن هو طريق البشرية الى الكمال .

الشاب : وحيث يتآمر المتغطرسون في غير ما رحمة تسود شريعة الغاب . واذا فلا مجال للانسانية او طريق الكمال . فهم بالطبع متغطرسون غافلون حتى عن جريمتهم .

الشرطي : الا سحقا للمجانين ، ينزعون عن انفسهم رداء الآدمية .

الشاب : ابدأ قانون الغاب ، ولا تجديد . فللايين المظلومين بالطبع لا يصلحون للتشريع ، والسيادة للقوي . حين يسرق الضعيف خبزه مرغما او يموت ، تزارع الجموع في همجية . وتقطع يد السارق تماما كما يكتنز القوي . تهلل كل الوحوش والبهائم حتى الديدان دون ان تجرؤ حتى على السؤال لماذا هي تهلل هكذا . والفقراء ابدا يخرسون ، وآلافهم بلا اذرع .

الشرطي : كما لو كانوا يغفلون اي طريق اختاروه واي خراب .

الشاب : الغلبة دائما للقوي . وعندئذ تموت شعوب باسرها او تؤول للتشريد . ورغم ان الاطفال يولولون في العراء او تحت رصيف مزدحم بصوت مسموع ، الا ان الآخرين بالطبع متغطرسون . ولا مجال لاقلام تعرقل سير الجريمة ، فقد شغلتها عمليات التزييف . والفقراء ابدا لا يفهمون ، او هكذا يبدو الواحد منهم . لكن الطريق الى النهر ترفرف عليه اعلام حزينة منكسة ، يمضي من تحتها المنهكون ، يزحفون ، بعد ان تصوروا ان رائحة الجثث المنبعثة كفيلة بان تحرك يوما انوف المتغطرسين .

الشرطي : يا للعواطف النبيلة تندثر من هذا العالم .

الشاب : وهذا الركب يثن في طريقه الى العدم ، يشيعه مارش الجلادين ، يا اصدقاء ، ينبعث متخاذلا من حشرجات الضائعين . فغير مسموح للفرق الموسيقية الا بتشييع الجنائز الفاخرة .

الشرطي : يا الهي ، ينبغي الا تنطفىء المصابيح هكذا على كل الطرق ، فالظلام يطبق على العالم . يطبق تماما .

الشاب : الا طريق النهر ، فهو مضيء . يا للخيبة ، كما لو كان محتما ان نمضي اليه دون ان ننظر حتى الى الخلف لحظة . فالظلمة مطبقة . حين يطلب منا ان نعيش ينبغي ان تضاء بعض المصابيح على الطرق ، والا ففي الحساب عبث ثقیل .

الشرطي : لا يا ولدي . لا ، ليس هكذا من فضلك .

الشاب : آسف ايها العجوز الطيب . كان لا ينبغي ان يعيش المرء في رعدة دائمة من هذا العالم المجنون . ولذا جئت انشد الخلاص في العدم . اريد اخيرا ان استريح ، فقد انهكتني ايامي التي عشتها بما فيه الكفاية . واخيرا اريد ان انام . انام حياتي بطولها ، فقط في سلام .

الشرطي : تريد ان تحرق بالنوم ما تبقى من ايامك ؟

الشاب : اهرب من الالم ، وذلك الضجيج يسم اذني ليل نهار بلا هوادة . والآخرين يعيشون في اكذوبة كبيرة علنية .

الشرطي : ابدأ . بالنوم لن يحقق المرء شيئا . كما ان الامور تموت بموت صاحبها .

الشاب : لكن الاكذوبة تعيش كما لو كانوا يهيئونها للخلود . ويتسابق اللثام لرفع الاعمدة . فهم بالطبع غلاظ . واذا فلا مجال للضعفاء او المنهكين . وبدلا من ان يرسف المرء في اغلال الجود الاضطرابي ، او يتحول تلقائيا الى قطعة شطرنج ضعيفة صماء يحركها قدر مزعوم ، فضلت ان آتي الى النهر لانا فيه في اليقين بمفردي . انام الى الابد بمحض ارادتي . ولكن لا تولول ايها العجوز الطيب ، او تذرف الدموع ، فالآخرين ابدأ لا يعرفون ، او هم يتظاهرون بالحزن احيانا ، ثم في المساء ينامون - تماما كما تنام انت ، دون اي حرج . ومع اليوم الجديد يتشاءمون ، لبيدوا بذقون حلقة لامعة وعطور تقي انوفهم شر الرياح المنبعثة من النهر . لكن الامر في غاية البساطة . من هنا الى اسفل . بلرب ، ثم القاع . انتهى .

الشرطي : كلا . كلا . فلن تكون هذه ابدأ وسيلة العلاج . ولكننا سنسير ، انا وانت ، على الطريق ، رغم الظلمة وعبث العابثين . نحكي قصتنا للجموع . نسأل فلاسفة الارض وحكامها . فالعالم في حاجة الى النور . مزيدا من التغيير لازالة الصدأ . والذين ينشدون النور ابدأ لا ينبغي ان تفرعهم السحب هكذا . هيا يا ولدي . هيا . فانا ارتعد من هذه النهاية البغيضة .